نحو إدماج الدلالة في الحساب الإلكتروني السيميائية الكامنة في المعجم الفصيح الترابطات عبر

أ.د. أمين عبد الكريم
(ميشال) باربو
(جامعة مارك بلوخ
ستراسبورغ)

تعابير السلام والتحيّة والشكر . سيقدّم البحث الآتي الخطوطَ العامّة للنظرية المعجمية المشكلنة التي استمددتُها من نتائج استعراض الألفاظ العربية الفصحى بمختلف مدلولاتها المدوَّنة في المعاجم الكبرى ، وقد استغرقت هذه العمليةُ المؤقتة حوالي خمسٍ وثلاثين سنة ، ثم كرّستُ معظم مجهوداتي اليومية على هذا العمل منذ أوائل التسعينات حتى أنني بدأتُ أنشر عدةَ التطبيقاتِ النظرية في حوالي خمسةَ عشر مقالةً ، قد صدرت في طهران وهيدلبرغ وستراسبورغ وتونس والجزائر ووهران وفاس . وقد قدّمتُها في عدّة ندوات وطنية و دولية ، وفي "ماستر كلاس" ثلاثة أيام في مركز البحث العلمي بالرباط . وبعد الصيف المقبل بحول الله سأدرّسها في الإمارات كأستاذ زائر .

لقد لاحظ بعضُ النحاة الأوّلين وقوعَ الاشتراك اللفظي والدلالي في كلمات منتمية إلى جذور مختلفة ، وهي تتقاسم معنىً معيَّنًا – أو في الحقيقة قيمةً دلالية مشتركة . يكفينا أن نذكر كتاب (*المقاييس*) لابن فارس حيث يشير مثلا إلى تتابُع الدال واللام في الثلاثي "وهي تدلّ على حركةٍ ومجيء ، وذهابٍ وزوال من مكان إلى مكان ، والله أعلم" .يشير هنا إلى البعد الأفقي ، لا إلى البعد العمودي حيث بعضُ الأحوال لا تتحرّك فِعلا ، وإنما هي متّهِجةٌ من الأعلى إلى الأسفل... لقد أثبَتَتِ الدراسةُ المستوعبة للأمثلةِ الواردة في الكتب والبحوث والمعاجم القديمة أنّ أغلبيةَ الاستدلالات في هذا الصدد تتّصف إمّا بالتعميماتِ المفرطة انطلاقًا من ملاحظاتٍ جزئية ، وإمّا بإهمال الأمثلةِ المضادّة للشرح والتأويل، ولاسيّما باستبعاد العناصر الصوتية والدلالية غير المشتركة . نعترف بالجهد الجهيد المبذول إلى اليوم من أجل شرح تعدّد المعاني في التراكيب الجذرية الثلاثية والرباعية . ونعرف في نفس الآن كيف تُنسَب المدلولاتُ المتباينة المتواجدة في جذر معيّن إلى معانٍ أصول يقال إنها قد انحرفت عنها المدلولاتُ المشهودة مع مرور الزمن أو حسب أحوال الاستعمالات والسياقات والأساليب البلاغية الخ . قد جادلتُ العديد من مثل هذه التأويلات في منشوراتي السابقة ، ملحًا على النواقص المنهجية الخاصّة بمفهوم المعنى الأصل ، وعدمِ الاعتبار الجدّي بالتبايُنات الدلالية ، فالاسترسالِ السائد إلى القول بالترادُف في غير محلّه ، وغضِّ النظر إلى التنوّعات الدلالية الأصيلة ... لن أطيل الكلام في تصنّع الكثير من التأويلات : را. كلمة (غطرس) في *المقاييس* مثلا . أفضّل الإحاح على لزوم الاعتبار النظري بكافّة المكوِّنات الصوتية والدلالية . وهذا بالحقّ إحدى مسلّمات النظرية . ، وفي مرحلةٍ أوّلية لزومُ تبريرِ وجود عناصرها كما نجدها في المعجم ، بالإجابة

الواضحة على ثلاثة أسئلةٍ مُسبَقة قبل أي تأكيد أو استدلال : ا) لماذا اختار الأسلافُ هذا الصامتَ الجذري أو هذا الحرفَ الزائد (المزعوم) ؟ ب) لماذا جعلوه في هذا المحلّ من حروف الكلمة ، أي قبل صامتٍ آخر أو بعده ؟ ج) والمهمّ الأهمّ ، من أجل التعبير على ماذا بالضبط ـ أي ما هي وظيفتُها في بناء هذا المدلول ؟ لا تجيب نظريةُ الزيادة المعجمية على هذه الأسئلةِ المشروعة ، إذ تُفسّر دلالةَ لفظةٍ رباعية مثلا باللجوء إلى أقربِ دلالةٍ واردة في كلمة ثلاثية حينما لا تختلف الأولى من الثانية إلا بحرفٍ واحد يقال حالا إنها زائدة فانتهى . أمّا اللجوء إلى فكرة (دلالة الحروف بحدّ ذاتها) فهو جوابٌ غير مقنِع في عصر ازدهار اللسانيات العامّة والمقارِنة على السؤال الوظائفي الثالث . وقد انبريتُ بالعديد من الحجج اللسانية ، الحاكمة على ضلال هذا التصوّر القديم . الأرجح أنّ له علاقةً وثيقة ـ مباشرة أم لا ـ بنظرية (محاكاة أصوات الطبيعة) عند أفلاطون ، ومن المعترف به أنّ قيمتَها التأويلية محدودةٌ جدًّا ، والأمثلةُ المعاكسة لا تحصى .

إن الدلالة المعجمية ـ ولا أتكلّم هنا عن محتويات المورفيمات النحوية ـ مبنيةٌ في اللغات الساميّة على استغلال التبايُن بين صامتَين مختلفَين (متّصلَين أو منفصلَين) ، وهما مرتَّبان ترتيبًا زمنيًا لا يُقلَب حقًّا إلا هفوًا . والباقي ممّا يبدو مقلوبًا في كنز اللغة فإنه ناجمٌ من تقصير البحث والمقارنة على عدّة ألفاظٍ فحسب (إثنين مرارًا . تذكّروا كتبَ الإبدال أو باب التصاقُب في *خصائص* ابن جني) . إجمالاً ، الحقّ على عدمِ استيعاب جميع الكلمات المعنيّة ـ مترادفةً كانت أم لا ـ في بحث حقلِها الدلالي الشامل أو الحقولِ المجاورة المرتبطةِ به على مستوىً أو آخَر. أشدُّ بواعث الإيمان الشائع بوجود التقاليب الستّة المشهورة لا شكّ أنه هو التشبّثُ السائد بتعليم الخليل بن أحمد العلامة رحم الله عنه . إلا أنّ مَن يعتقد مثلا أنّ (عفعف) قد أحدثه قلبُ (فعفع) لا يزال متمسّكاً بفكرة الفراغ والخَلَل والتقطيع الخليلية بين (فع) و(فع) ، ولا ينتبه إلى أمر بديهي لم أنتبه أليه أنا الآخَر حتى منتصف التسعينات [**صورة**]. لمّا نقسّم تلك المادّة الثنائية المكرَّرة بالحساب الثنائي، لا نحصل على تتابُعَين (فع) ثمّ (فع) ، ولكن على أربعة (فع ـ **عف** ـ فع ـ ف...ع) . إنّ وجودَ هذه القطعةِ الوَسَطية محتومٌ لجميع الأسباب، وإن كان الناطقون بالضاد لا يُضطرّون إلى استغلاله الدلالي في كل ظرفٍ من ظروف النشاط الكلامي والابتداعِ الاصطلاحي . ههنا حركيةٌ دَورية يَتتابع بموجبها تلفّظان متباينان من دون أيّ تقليب ، أي بمراعاة اتّجاه محور الزمن الذي لا يرجع إلى الوراء في هذه الدنيا . إنّ مدلولاتِ التراكيب المعجمية المكرَّرة كثيرًا مّا استغلّت هذا التواجُدَ الشكلي، بل هذا التضادَّ الظاهر بين الفعَينِ المسموعَين وقطعةِ

(**عف**) الوَسَطية للدلالة على الحركات المتناوبة (ذهابًا وإيابًا)، المتعددةِ في المعجم الفصيح كما هي في الطبيعة ، والحقّ أنها توصَف إلى الآن بمجرَّد سيمة (التكرير) دون الاكتراث الكافي لتواجُد الاتّجاهَين وتناوُب الحركات المشار إليها . أ ليس هنا مَثَلٌ باهر لِما سمّاه ابن جني "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"...

زيادة على ذلك ، يتبدّى أنّ التبايُناتِ الثنائية لا تقتصر على حرفَين من حروف لفظةٍ ثلاثية أو رباعية ، فتتركّب ببعضها في كل اللغة ، وِفقًا لمقتضياتٍ شكلية تنصّ بها تيوريماتٌ ذاتُ شرطَي الضرورة والكفاية [**صورة**] . بناء على ذلك ، يُبرهَن على وحدة كيفية التسمية الجذرية الصامتية ، مهما كان عددُ حروف الكلمة (ثلاثة أو أربعة) ، بل وعددُ التبايُنات الثنائية (ثلاثة في الثلاثي أو ستّة في الرباعي) . بالفعل، يجب ويكفي تواجدُ تبايُنَينِ صامتيّينِ (وفي كلاهما دلالةٌ معيّنة تُقاسم كُلا منهما كلماتٌ أخرى في سائر النظام المعجمي) حتى نجيب على الأسئلة الثلاثة المُسبَقة إجابةً شكلية وظائفية كاملة .

لقد تمكّنتُ بعون الله ـ والعلم للعليم ـ من تدوين أكثرَ من مائةٍ وعشرين ألفِ ترابطٍ ثنائي كلٌ منها يجمع بين كلمة وأخريات على صعيدَي الدالّ والمدلول . ويجدر القول بأنّ عددَ الكلمات وبالأحرى عددَ المدلولات غيرِ المترابطة لا ينفكّ يتناقص بسرعة متزايدة ، مِثلما كانت المناطقُ البيضاء ـ أي مجاهيلُ الكرة الأرضية على الخرائط ـ تمّحي شيئًا فشيئًا في قرون تقدُّم الاستكشافات الكبرى . إن الترابطات المذكورةَ المتشابكة ليست أشكالاً اعتباطية ولا صورًا اصطناعية ، ناتجةً من تصادُفات تاريخ أهل الضاد من أقدم العصور . إنها آثار العرب القدامى ، آثارُ تعقّلاتهم وانطباعاتهم وأحاسيسهم ، المتبقّيةُ في أحشاء كيانهم اللغوي . إنها حقًّا جذورُ الأصالة كما قلت في نهاية ندوة تونس الدولية (مجادلة السائد) في عام ١٩٩٨ . إذا درسنا المدلولاتِ بالدقّة المنشودة ، لا نلبَث أن نلمُس كيف تتركّب عناصرُها على متن التبايُنات الصامتية المتداخلة . هناك نظامٌ متناسق في المستوى الأعمق من بناء اللغة ، لا يختلط بالمستوى الصرفي النحوي المعروف كما دللنا عليه أنا ود. كنزة بورجا في مقالة مجلة *لقمان* (طهران ١٩٩٧/١٩٩٨) وفي مقالات أخرى (في ستراسبورغ ٢٠٠١ مثلا). لكل لفظة عربية وكلِ مدلولٍ من مدلولاتها محلٌّ في النظام المعجمي ، وما يحدّد هذا المحلَّ ليس محلَّها في الاشتقاق فحسب ، إنما هو بالأكثر مركزُ ترابطاتها السيميائية بسائر الألفاظ . فهكذا تشبه الكلمةُ العربية البؤرةَ أو

المَحرَق في علم الفيزياء ، بل العَصَبونَ الدماغي في علم الأحياء ، مع ترابطاته المتعدّدة بالأخريات التي تتبادل الإخبارَ والحساب بشكل إشعاعيٍ هائل . هناك تشابه عجيب يجدُر بنا أن نتأمَّله بكل تأنّ ودقّة ، وهو كنزٌ لا يفنى من القيم الأصيلة الفعّالة . جميع الألفاظ العربية خاضعةٌ لقوانين (الترابط السيميائي) العامّة ولذلك سَمّيتُ هذه النظرية **(النحت الأكبر)** ، إذ أنّ هذا النظام ليس اشتقاقًا كما دلّت عليه د. كنزة بورجا في مبحَث موضوعُه الإبدال عند أبي الطيب اللغوي (ستراسبورغ ١٩٩٧) حيث وَجدت ثلاثين فارقًا بين **النحت الأكبر** والاشتقاق الكبير والأكبر . حتى الكلماتُ المصنَّفةُ عادةً في باب الشواذّ أو الغرائب خاضعةٌ كلُّها لتلك للقوانين العامّة ، كمِثل (عَبَنجَر) بمعنى الضخم الذي لا جذر له في المعجم الفصيح ، وإن كان على وزن فَعَنلَل (مِثل قَبَنجَر أيضا) إلا أنّ مُركَّبَ صوامتِه الخمسة ـ بما فيه زائدةُ النون الصرفيةُ المعبِّرةُ المعروفة ـ مترابطٌ بعشرات الجذور الأخرى من خلال التبايُنات المذكورة أعلاه وكذلك بواسطة الإبدالات المعروفة (كمِثل ع / ح في عَبَنَ ، حَبِنَ الخ...) . [صورة **شبكة الشيخوخة**]

هذا البناء الإشعاعي الذي يميّز المدلولَ المعجمي وعِمادَه الصوتي لا يُغني الكلمةَ َبالطبع من

الانتماء إلى نظام الاشتقاق والصرف ، فلها وزن وصيغة وجذر في أغلب الأحوال . غير أننا نُضطَر اليوم فصاعدًا إلى أخذ العلاقات السيميائية (اللانحوية) بعين الاعتبار الدقيق من أجل استخدامها لصالح العرب بحول الله في شَتىَّ ميادين التعليم والعلم والتكنولوجيا ، سأعود إلى هذه النقطة فيما بعد . قد أثبَتَ التفتيشُ أنّ أكثرَ من تسعين في المائة من جذور المعاجم متعدّدةُ المعاني مهما تساهلنا في الإقرار بالترادف ـ وهذا إلى حدٍّ قد هزّ القريحةَ الشعرية عند وصف المعجم بالمحيط والدرائر الكامنة . وقد جعل الكثيرَ من المستشرقين وحتى العرب لسوء الحظّ يتمسخرون على فوضىً دلاليةٍ مزعومة ، ليست بالحقيقة إلا من عواقب اختيارهِم الخاطئ للأدوات المفهومية والمناهج التحليلية غير المناسبة . سترون بعد قليل التماثلاتِ المادّيةَ الرائعة التي غشّاها تحليلُ الخطّ المكتوب ، تلك التماثلات التي شاركت في تنظيم المعجم الفصيح والتي عزّزت ترسُّخَ الوحدات المعجميةِ المتشابكة في الذاكرة العربية (الجماعية والفردية) طِوالَ ألف سنةٍ وأكثر من الاستعمال الشفهي قبل عهد التنزيل المبارك ، حتى أنّ تلك الذاكرة ضُرِبت فيها الأمثالُ ، إلا أنّ لها دعائمَ بنيوية سيُلقي عليها **النحتُ الأكبر** أضواء جديدة إن شاء الله .

في صدد تعدّد المعاني ، الاختلافاتُ الكبيرة في محتوى كلمةٍ معيَّنة وهي ملحوظة ما بين ترابطات المدلول الأوّل و ترابطات المدلول الثاني والثالث إلى آخره تُبرهِن على تواجُد ضروبٍ من الدوائر الإخبارية المتباينة تلتقي داخلَ الضامن الصوتي المشترك وقد تتفاعل أحيانًا أو تبقى مستقلّةً من دون تقاطع دلالي معقول كمثل (عكرد) أو (فِرضِم) في *لسان العرب والقاموس المحيط* . لا يهمّنا في هذه المناسبة النقاش بين الاشتراك اللفظي وتعدّد المعاني ، وهو أمرٌ يخصّ التصنيفات النحوية غير أنّ الحقائق الكلامية وما يترتّب عليها في النظام أخطرُ بكثير وأثمن بالنسبة إلى معرفة الدلالة العربية الأصيلة وتفهُّمِ قِيَمها المتداخلة واستخدامِها في الوقت المعاصر . فالأفيَدُ في رأيي أن نستطلعَها بالدقّة العلمية المنشودة حتى نفهمَ تمامًا كيف تُفضي التراكيبُ الصامتية إلى التعبير على شيءٍ مّا . والمقصودُ هنا إدراكُ تنسيق العلاقات الداخلية والخارجية ، الكامنةِ في محلّ هذه الوحدة من سائر الوحدات المعجمية المرتبطةِ بها صوتًا ومعنىً . ينبثق هذا الإطار اللغوي العلائقي من خصائصَ ثقافيةٍ (بأعمِّ معنى هذا التعبير) تُعكِّس لنا اليومَ جوانبَ فسيحةً من العالم الرمزي الذي نشأت فيه العروبة وتطوّرت منذ أكثرَ (بكثير) من ألفَي سنة والذي لا يزال حيًّا في صميم لغتنا الفصحى ، وهو أغنى ممّا يصفون . قد يقال : أين الثرى من يد الراغب... أجل ، نحتاج اليوم إلى الأدوات المفهومية المناسِبة ، لا للغَوص في محيط المعجم لصيد الدرائر وإنّما لاستكشاف الفضاء العلائقي . وهذا متاحٌ لنا بفضل حقيقةٍ شكلية عامّة، وهي أنّ لكل دلالةٍ معجمية أثرًا ماديًا ملموسًا من بينِ وسائل الوصول إليها كنزُ العلاقات المذكورة اللامثيلَ لها قي سائر اللغات الساميّة . هذا الكنزُ المسجَّل في المعاجم تراثُ العرب العقلاني والثقافي معًا . إنّه زادُهم التعبيري الأثمن على دروب العولمة الوعرة ، إزاء مخاطر الدلالةِ الأجنبية المكتسِحةِ من كل صوبٍ ونَحو ، المتدفّقةِ على ثقافات الشعوب النامية وحتى المتقدّمة . ألا تذكُرون ما قال فيها وعليها المرحومُ العلامة عبدُ القادر المغربي قبل تسعين سنةٍ ونيّف ؟

لقد توصّل العبدُ الفقير إلى استنباط عددٍ من الأدوات الشكلانية ، المأخوذةِ من البحث في أعماق كنز الضاد . [**صورة**] فهُنا مثلا نَموذَجيّةُ التراكيبِ الجذرية المستعمَلة في المعجم الفصيح . كلّها مبنيةٌ على إحدى البُنى الثلاث : الثنائي المكرَّر أو الثلاثي أو الرباعي . وأضلاعُها المشتركة تتوافق حسب قواعدَ قد حوّلتُها إلى صِيَغ جبرية متوافقة . ولّما تتآلف التراكيبُ في المعجم أثناء تطوّرِ اللغة عبر العصور ، تقوم العمليةُ التأليفية على أساس تقاسُم تباينات ثنائية ذاتِ دلالة "محلّية" ـ أي محصورةٍ في سلسلةٍ من الألفاظ يُقاس

عليها حملُ تلك الدلالة على مدلول من مدلولات الكلمات المتآلفة . لا يقوم التآلفُ من جراء إقحامِ حرفٍ من حروف الكلمةِ الأولى في بناء الكلمة الثانية . ترتيبُ التراكيب المنتظِمةِ في حقلٍ دلالي معيَّن دائمًا يراعي اتّجاهَ محور الزمن . سنرى كيف تكوّن النظامُ الشامل أيضًا . وإذا نظرنا في البُنى التي وَلَّدتها عملياتُ التقريب والتأليف المتدرّجة في تاريخ العرب الأقدمين ، وجدنا أنّ عددَها وتنويعَها الصوتي والدلالي هائلانِ ، وأنّ لغةَ الضاد استفادت منها إلى حدّ لا يُتصوّر ، مقتصدةً مع ذلك وسائلَ التعبير من حيث الدالّ والمدلول معًا ، معمِّمةً الترابطَ السيميائي بذلك التنظيمِ المزدوج : ألا وهو توصيلُ اللفظ والمعنى في كافّة المكوِّنات الأساسية وجميعِ تراكيبها .

لنأخذِ الآن مثلَ كلمة (فِرضِم) وهي مصطلحٌ قديم نجده في ابن منظور والفَيروزابادي أيضًا . معناه في *اللسان* : " الفِرضِم من الإبل : الضخمة الثقيلة " ، بَيد أنّ معناه في *القاموس* : " الشاةُ الكبيرةُ المُسِنَّةُ ، أو المَكسورَةُ القَرنيَن ، والدَرداءُ الفمِ " . إنّ الوصفَ التقليدي السائد ، المعتمدَ على نظرية الزيادة المعجمية ، عاجزٌ عن الإجابة المقنِعة على الأسئلة الثلاثة المسبَقة ، فيقف جامدًا أمام معضلة الشرح اللغوي لكلا المدلولَين ، بل أمام التساءل المشروع واللابدَّ منه عن محلّ الكلمة في المعجم الفصيح وعن علاقاتها السيميائية بأسماء الحيوانات وكيفيةِ حفظ مميّزاتها الطبيعية في رؤية العرب إليها . يكفينا تطبيقُ المنهجِ التحليلي الذي صمّمته مسلَّماتُ نظريةِ **النحت الأكبر** حتى نكتشف بالفَور مختلفَ السيمات المعنية والتباينات الصوتيةَ الموافقةَ لكلٍ منها . **١)** فيما يخصّ *اللسان* : الإبليّات ـ الضخامة ـ المِشية الثقيلة . **٢)** في مدخل *القاموس* : الأغنام ـ كِبر السنّ ـ ثَرم الأسنان ـ كَسر العظام . كلُّ ذلك مدوَّن ومحلَّل من خلال عدَّة رسومٍ هندسية تجمع هذه الحقائقَ العلائقية العديدة في آنٍ واحد ، وكلُّ رسمٍ بياني خاصّ بسيمةٍ معيَّنة . لقلّة الوقت ، ليس بوُسعي تعليلُ تصميمِ هذا النوعِ من الرسوم البيانية ، المستمَدَّ من خصائص بناء الكلمات الساميّة . كما لا يُتاح لي الآن تفسيرُ هذه الرسوم ، فأقتصر على عَرض رسمَينِ إجماليَينِ لكِلا المدلولين ، : [**صورتان**] وحالا نتأكّد من الطابع الإشعاعي ، الشَبَكي (بأدقّ معنى هذا المصطلح في العلوم الحديثة) للارتباطات الوثيقةِ بين (فِرضِم) والمعجمِ الحيواني المُقابل في كنز اللغة الذي تنتمي إليه الكلمةُ بمختلَف أواصرها اللفظودلالية المتناسقة .

ليس ذلك شيئًا استثنائيًا . إنّما هو بالعكس حقيقةٌ سيميائية تعُمّ المعجمَ بأسرِه . ويمكن التأكّد من عموميّتِها بعد القليل من التمرين والكثيرِ من التأني . وفي رأيي من أفيَد المقدِرة الكَشفية **للنحت الأكبر** أنه يُفضي بنا إلى اكتشاف تسلسل الحوادث المسجَّلة في الوحدات المعجمية كما رآها العربُ وكما توارثنا منهم تعبيرَها اللساني بثرواتِها الثقافية الخالدة . لا يقتصر الأمرُ على ما أشارت إليه *خصائصُ* ابنِ جني في بابٍ لمّحتُ إليه سابقًا : "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" . أي لئلا نكتفِ بتحليل أجزاء بعض الكلمات ، وإن كانت العمليةُ التفكيكية تلقي الضوء على تكوين الألفاظ الساميّة في القِدَم . وقد أذكُر أمثلةً من نفس القبيل كفِعل (فجّر) بمعناه الأصلي (شقّ فُجّةً في التراب كي تجري مياهُ السَقي) ؛ أو (قعفز) بمعنى (الإقعاء قبل القَفز) . إلا أنّ التشابكَ السيميائي أكثفُ بكثير وأدقّ تحليلا للبيئة المجاورة ولتصرُّف المخلوقات في نظر العرب . الجديرُ بالذكر أنّ المناهجَ التقليدية لا تفي بالمطلوب ، إذ تُقصِّر مجالَ التحليل على حدود الكلمة ، أو - على الأكثر - تهتمّ بعلاقات بعضِ حروفها ببعض حروف كلمة أخرى . ولا يمتدّ الاستطلاعُ المنشود إلى أقاصي الميادين المعنية ، وعلى كلٍّ لا يزال التفتيشُ على الزوائد المعجمية سائدًا بالنتائج المتوقَّعة : إخراجُ معظَمِ المادّة الدّالّة من حقل الدراسة ، وقد برهنتُ في منشوراتي السابقة على أنّ تأويلَ الرباعي مثلا إلى الثلاثي + زائدة كذا ، ثم تأويلَ الثلاثي إلى شيء ثنائيٍ أصلي + زائدة أخرى يُفضي ذلك حتمًا إلى إلغاء خمسة تباينات ثنائية من مجموع الستةِ الكامنة ، القابلةِ لوظيفةٍ مّا في النظام المعجمي : وهكذا عقّمت نظريةُ الزيادة المعجمية ، المنحرِفةُ مِرارًا إلى التأويل الثنائي المبالغ ، خصوبةَ المادّةِ الأصيلة وغنى الكيان اللساني العربي ، فلم تُقدِّم لنا قي الأخير إلا جُدَعاتٍ وأشلاء مشتَّتة . فضلا عن ذلك ، لمّا قَصَرَ المحلِّل عن كشف الزيادات والأصول الثنائية المقدَّرة ، يكفيه أن يقول : إنّ لفظ كذا معناه كذا إمّا توقيفًا وإمّا اصطلاحًا ، إنه موضوع الخ ...

بعكس تلك الطرائق القديمة ، أحببتُ أن أعرض على حضراتكم تطبيقًا عمليًا في تحليل كلماتٍ مرغبة لا يقدر التحليلُ السائد على إفادة كل ما فيها من طاقاتٍ تعبيرية عجيبة : أخذتُ مثلَ أسماء (الضفادع) - التسميةَ السخرية للفرنسيين في بريطانيا الشقيقة كما تعرفون ! لو كان باستطاعتي تفصيلُ ما يتعلّق بالضِفدَع أو العُلجوم ، لكنتُ أطلعتُكم على كافّة المفاهيم التي تصف الضِفدَعيّاتِ بعدّة صوامتَ منتظمةٍ مترابطة في لغة العرب ، وقد صُبَّت في قوالبِ الجذور المرتبطةِ باللفظَين المذكورَين . [**صورتان**] يُبين

لكم كلٌ من هذَين الرسمَين صياغةً جبرية دقيقة للحقيقة اللسانية العلائقية من بينِها التكثُّر والصوتُ المزعج وانتفاخُ البطن والفَزَع والقفز والفِرار السريع والاستتار الخ ... بالإجمال ، لا تنحصر التلفّظات المعنية في حدودِ الصوامت الجذرية ، كما لا تنحصرُ دلالتُها العميقةُ الأصيلة في حدودِ مدلول هذه الكلمة .

إنّ الطاقات التعبيرية في لغتنا تتجلّى في كلمات قد صَرَفَ الكثيرُ أنظارَهم عن تأويلِها كمِثل (اضرهزّ إلى كذا) الذي نجده في *القاموس المحيط* وهو يعني : " دَبَّ إليه مستترًا " ، وبالضبط صوبَ العدوّ أو الصيد . إنّ مراحلَ ظروف الكَمين والدَبيب والزَحف المختفيّ كالأفعى تحت الأعشاب باتِّجاه الهدفِ استعدادًا للوُثوب عليه ، مفصَّلةٌ كلُّها في عشرة رسومٍ بيانية تدلّنا على ما يُشبِه السيناريو والتقطيعَ السينمائي ... [**صور**] نرى الآن كيف تتآلف القيمُ الدلالية عن طريق تشابُكِ التباينات الصامتية التي تذكِّر الناطِقَ كلماتِ الظروف التخاطُب الماضية وما أشبَه ذلك من مَلَكَتِه التعبيرية .

فانطلاقًا من مِثل هذه التحليلات ، بدأتُ أنهمِك بما يُسمَّى الحقولَ الدلالية ، وخاصّةً بتنظيمِها السيميائي في المعجم الفصيح . وبما أنّ اللغةَ الفصحى تمتاز بتسميَاتٍ لا تُحصى إلا بصعوبةٍ فائقة لأيّ شيء من أشياء العالم المعروف إذّاك ، عزمتُ أن أتخطّى ما توصّلَت إليه النظريةُ ، فاضطُرِرتُ لأسبابٍ عِدّة إلى تصدّي المواضيع من الجانب الطوبولوجي . أعني بذلك أنني أخذتُ أدرس كيف تتفاعل الوحداتُ المعجمية فتتآلف ، مع الحِفاظ التامّ على ثوابتَ بنيويةٍ لا تُقلَب أبدًا ، فتتحوَّل وتتطوَّر كلُّها لتجنُّبِ المَسّ بثاتبتةٍ فيزيائية مُطلَقة ، محتومةٍ على الجميع ومنهُم الناطقون : هي مرورُ الزمن وتقدّمُه المتواصل على مِحوَرِه الدنيوي . فبقَصدِ إبداء انتظامِ الوسائل التعبيريةِ الأصيلة على أبصار العلماء والمتعلّمين معًا ، جمعتُ الجذورَ الثلاثمئة والثلاثين التي تُعالج فيها لغتُنا الفصحى الشعورَ العربيَّ **بالغضب** .

فتحتَّم عليّ حالا تجسيمُ الرسوم البيانية - أي تمثيلُ الصوامت الجذرية وعلاقاتِها المتداخلة بالأبعاد الثلاثة ، تلك التي تتوزَّع فيها الظواهرُ المادّية ، كي نرى تجميعَ العلاقات - المُحتمَلةِ كالحقيقيةِ المشهودة - في آنٍ واحد ، أي ضِمنَ شَبَكة واحدة . تتصوَّرون بلا رَيب صعوبةَ العملية ، غير أنّ قواعدَ التنسيق بين التراكيبِ الصامتية بدأت تتَّضح لمحسوبكم مع طول التفتيش ، فأنجزتُ بعون اللّه التمثيلَ الكامل على الورقِ والشاشة. ثم نقلتُه إلى تصميمٍ خشبي [**صورة**] ، على غِرار تمثيل المركَّباتِ الكيميائية ،

أو بالأحرى البلُّوراتِ الذَرِّية بأبعادها الثلاثة . من المعلوم أنّ هناك فَرقًا بين العوامل التي تُخصِّص مَراتبَ الجزئيّات الإلكترونية وتُحدِّد أطوارَ تفاعلاتها من جهة وبين حركية الانتقالات من ذُروة إلى أخرى ـ أي من مخرَج صوامتَ جذرية إلى مخرج آخر ، وتركيبِ التباينات الثنائية في شكل وحدات معجمية مترابطة . لسوء الحظ ، يستحيل أن أفصّل هذا التمثيلَ المجسَّم ، وأن أقسّم مراحلَ الاستدلال بالصفة الديدكتيكية المطلوبة ، فأترك الأمرَ إلى محاضراتٍ وتبادلات وندواتٍ خاصّة بها . يجدر بي الإلحاحُ على بعض جوانب هذه المنهجية المتطوِّرة بعونٍ من العليم :

ا ـ يتألَّف هذا التمثيلُ الطوبولوجي من مسطَّحَينِ مترابطَين . في الأوَّل [**صورة**] خمسُ بُنىً رباعيةٍ ثابتةٌ أقواسُها الستّة ـ أي ضلوعُها الموجَّهة ـ في كلٍّ منها . إنّها منتَظِمةٌ بموجَب قواعدَ جبريةٍ ثابتة أيضًا . تنصّ إحداها على أنّ لكل تمثيلٍ مسطَّح وَجهَينِ ـ الظَهر والقَفا ـ يحدِّد اختيارَهما الصياغةُ الجبرية لانتظام الترابطاتِ اللفظودلالية المعنية . هنا مثلا وجهُ البُنيةِ المكرَّرة (اليمين الأعلى) وقَفاها (اليسار الأسفل) . وبالمقابل وجهُ البُنيةِ الرباعية (اليسارُ الأعلى) وقَفاها (اليمين الأسفل) .

ب ـ في المسطَّح الثاني خمسُ ذُرىً مرتبطةٍ بالبُنىَ السالفِ وصفُها [**صورة**] . بين المسطَّحَينِ عشرون ارتباطًا تتناسق بفضلِ مكوِّنات الفضاء المعجمي المعبِّرِ على (**الغضب**) في لغة الضاد [**صورة**] . يتميَّز هذا الفضاء بوجود مركزِ تماثلٍ ذي ستةَ عشر ارتباطًا بالذرى الأخرى . نلاحظ تقاطُعَ ثلاثةِ محاورِ تماثلٍ أهمُّها متكوِّن من دورةٍ لفظية (صامت شفهي ـ صامت خلفي) ، وأخيرًا تواجدَ خمسةِ أهرام . أهمُّها انتظامًا الأهرامُ الأربعة المتمركِزةُ حول الذُروة الوَسَطية ـ مركزِ التماثل (مخرَج الصوامت الشفهية) . الأعجبُ في الأمر أنّ هذا التصميمَ الهندسي يكشف لنا فورًا وجودَ هرمٍ سادس في الوَسط ، وهو مقلوبٌ " رأسًا على عَقِب " فيحتلّ الفضاءَ الوَسَطي ، منسِّقًا بذلك تواجدَ الأهرامِ الأربعة المذكورة . إنه مبنيٌ على قَفا قاعدةٍ رباعية ، منتميةٍ إلى المسطَّح الأوّل ، وقِمَّتُه هي بالفعلِ مركزُ التماثلِ العامّ (الشفهي) . وكلٌ من ضلوعِه قوسٌ يشاركه أحدُ الأهرامِ الأربعة . فهكذا تكوَّنت في هذا الفضاء الدلالي بنيةٌ متماثلة كاملةٌ لا فراغَ في أجوائها .

ج ـ هذا البناء الطوبولوجي يتّصف بالتوازن والتماثل واقتصادِ الوسائل التعبيرية . ولفهم التصميم كما يلزَم ، يجب أن أؤكِّد تأكيدًا أنه يمثّل في الحقيقة مجموعًا من الصيَغ الجبرية المتناسقة سوف يمكننا إدماجُها في الحساب الإلكتروني واللّه ولي التوفيق ...

لئلا ننسَ أنّ المعانيَ المعجمية لا يبدو أنها هي ولا عمادُها الصوتي منحصرةٌ أو مصفوفةٌ في الدماغ داخلَ حدود مجموعاتٍ من العَصَبونات الخاصّة بها . وكذلك لا تنحصر دلالةُ **(الغضب)** مثلا ولا عمادُها الصوتي (المتنوِّع تنويعًا هائلا) في حدود الجذور ، ولا بالأحرى في حدود عشراتٍ من التباينات الثنائية . في كلتا الحالتَين تنبثق الدلالةُ ويَنبَني المعنى على أساس عملياتٍ معقَّدةٍ لا تُحصى .

فإثر ذلك علينا إعادةُ النظر في مستقبل لغتنا الفصحى على أساسِ تلك المعطياتِ المنوِّرة . إنّ التحدّيَ العلمي خطيرٌ جدًّا ، ويفتح آفاقًا لا حدَّ لها لتحديث أجملِ وأقوى أداةٍ تعبيرية طوّرها الإنسانُ في الشرق الأدنى على الأقلّ . فلنتوكَّل على الله ، ونتفكّر في اختيارِه تعالى للغتِنا العزيزة من أجل تبليغِ مشيئته حتى يوم الدين ، وفي اتّخاذه عزّ وجلّ المصطفى (عليه الصلاة والسلام) خاتمًا للأنبياء (عليهِم السلام) ... أجل ، نتوكّل على ربِّنا العليم لكي نردَّ للفصحى مرتبتَها السابقة العظمى في العالم : كأوّلِ لغةٍ طبيعية سيفهَمُها العقلُ الاصطناعي بفضل **ترقيم المعنى** . هذا المقصودُ العلي لن يزال إلا حلمًا أو فكرةً وهمية ما دُمنا نحلّل مكوِّناتِ الكلام حسب تسلسلِها الأفقي أو الخطّي وحتى المتشجِّر ، وما دمنا نُرجع المعنى إلى جانبه النحوي - أي إلى علاقات منطقية تقسّم أشياء الدنيا على صعيد الكلّيات والمقولات العامّة حتى أنّ عدد المورفيمات الصرفية محدودٌ جدّا بالنسبة إلى الوحدات المعبِّرة على عددٍ لا حدّ له من المعاني . كما يجب تغييرُ ترميز المعطَيات المُدخَل في الحاسوب عند المعالجات الآلية حيث أنّ الرموز الاعتيادية خاليةٌ من الخصائص الوصفية التي يحتاج إليها العقلُ الاصطناعي لكي يفهمَ الدلالة المعجمية . تلك الدلالة منبثقة من حسابات معقّدة في معطيات شتّى وحقائقَ علائقيةٍ متفاعلة . أحِسّ الآن بأنّ الأبحاث التي قمتُ بها في غضون خمسَ عشرة سنةً والتي استغرقت أكثرَ من خمسٍ وعشرين ألفِ ساعة قد أمست تجعلنا على عَتَبة النجاح في **ترقيم المعنى المعجمي بفضل لغتنا العربية** . والمراحل المقبلة في هذا السبيل هي :

ـ ا) إنجاز قاموس إلكتروني مرمَّز يستوعب الترابطاتِ المدوَّنةَ إلى يومنا هذا ، ويُضاف إليه ما تتيح لنا نظريةُ **النحت الأكبر** من التكميل الآلي ، بواسطة منهجيّتِها الجبرية وسائر أدواتها التحليلية الشكلانية .

ـ ب) استغلال كنز الضاد السيميائي لافتتاح المرحلةِ الضرورية الأخيرة قبل إدماج الدلالة في الحساب الإلكتروني ، وذلك بشكلها العربي العلائقي .

يستعجلنا الوقتُ في العصر المعاصر ، حيث تنتشر المعارفُ بسرعة البرق بل والإبراقِ الإلكتروني ، ويتربّص أصحابُ الإديولوجيّات المتخاصمة وأعوانُها الانتهازيون لكل تقدّمٍ علمي ومعرفي يؤمّن لهم زعامةً فنّية تعزّزها الوسائلُ الآليةُ الحديثة . إنّ كنز الضاد مالُ العرب فلنسهَر عليه لكيلا يتسرّب ثراءُه سَهوًا إلى غيرنا قبل أن يُستَخدَم لمصلحة العروبة . على المؤسّساتِ العربية المعنية ـ مجامع اللغة ، مكاتب التعريب ، وزارات البحث العلمي هلمّوا جرًّا ... ـ أن تعِيَ إلى خطورة التفاتيش الجديدة المجدِّدة في طاقات لغة الضاد غيرِ المستغَلّة ، حينما تتّسع الهيمنةُ الأنجلوسكسونية اللغويةُ والفكرية والثقافية على لغات سائر شعوب العالم وعلى ثقافاتهِم ، وحتى على كيفيةِ تفكيرِهم . لن أرفعَ صوتي طويلا للدفاع عن لغتنا الفصحى المقدَّسة نظرًا لقلة أيامي المتبقّية في الحياة الدنيا . هل يُصغى إلى هذا النداء ؟ هل يرنّ صداه لدى مسامع أولياء الأمر ؟ اللّه الكريم أعلمُ . إنني به أستعين، داعيًا لأنفسنا ولمجهوداتنا المتواضعة ولأهل الضاد المجاهد المجتهد توفيقَ ربّ العالمين ،